متابعة

مهرجان غابو محاولات لمنع تحنيطه

كيف يقرأ كتّاب اليوم غابرييل غارسيا ماركيز؟

في المهرجان الذي عُقد بين الخامس والسابع من الشهر الجاري، بالعاصمة الكولومبية بوغوتا، وشارك فيه مئة وسبعون كاتباً من حول العالم، ناقشت مجموعة كتّاب شباب من أميركا الجنوبية، أهمّية ماركيز بالنسبة إليهم وكيفية تفاعل الأجيال الجديدة مع أدبه

جعفر العلوني

«ملايين القُرّاء اليابانيّين لغابرييل غارسيا ماركيز ينتظرون افتتاح مكتبات طوكيو للحصول على النُّسخ الأُولى من الترجمة اليابانية لروايته «مئة عام من العزلة»؛ «في مُقابلةٍ أخيرة أُجريت مع السينمائي وودي آلن أعلن فيها أنّ صاحب ‹خريف البطريرك› هو كاتبه الساحر»؛ «تناقلت بعض وسائل الإعلام العالمية أخباراً تُشير إلى وجود روابط عائلية بين حائز ‹نوبل للآداب› والرئيسة المكسيكية المُنتخبة حديثاً كلوديا شينباوم»، هذه بعض الأخبار المُتعلّقة بالكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز (1927 - 2014)، والتي تناقلتها أبرز الصحف العالمية في الأسبوع الأخير، احتفاءً بالمؤلّف، كما لو أنّه لا يزال على قيد الحياة.

تتزامن هذه الأخبار مع «مهرجان غابو» في دورته الثانية عشرة، الذي أُقيم في مناطق متعدّدة من العاصمة الكولومبية، بوغوتا، بين الخامس والسابع من الشهر الجاري تحت شعار «حكايا كي تستيقظ». حيث استضاف أكثر من مئة وسبعين كاتباً وروائياً من مختلف بُلدان العالم، لمناقشة موضوعات متعلّقة بالصحافة والفنّ والأدب والموسيقى والسينما، بين أمورٍ عديدة أُخرى.

على الرغم من تنوّع نقاشات وحوارات المهرجان، فإنّ موضوعه الرئيس والأهمّ يُمكن أن يُلخَّص بالطاولة المستديرة التي جمعت كتّاباً من جيل التسعينيات لمناقشة «كيف يقرأ الكتّاب الجُدد غابرييل غارسيا ماركيز اليوم؟».

سؤال طُرح على الكتّاب في ظلّ سلسلة من الأخبار الأخيرة التي تؤكّد أنّ الكاتب لا يزال حاضراً في المشهد الأدبي العالمي، خصوصاً بعد طباعة روايته الأخيرة «نلتقي في آب»، واقتراب عرض مسلسل على منصّة «نيتفليكس»، لنصٍّ مُستوحى من رواية «مئة عام من العزلة».

ربّما هذا ما دفع الكاتب الكولومبي هارولد مونيوز (1992)، مؤلّف رواية «اخرُج إن استطعت» (2022)، والمقيم في بوغوتا، أن يقول إنّ «ماركيز صار هو نفسه مُنتجاً. صحيح أنّ هذه الأخبار هي وسائل كي يبقى الكاتب حيّاً، لكن لا يحدث الأمر نفسه مع عمله الإبداعي. لقد حوّلوا غابرييل غارسيا ماركيز إلى مغناطيس تذكاري يُباع في محلّات بيع الهدايا التذكارية كي يُعلّق على الثلّاجة. وهذا أمر مُحزن. لأنّ عمله الحقيقي ودوره الملتزم والحيوي بوصفه صحافياً وروائياً يُحيَّدان ويوضعان جانباً. بالنسبة إليّ لا يمكن فصل نضاله الاجتماعي والسياسي في أميركا اللاتينية عمّا كتبه».

يأخذ مواطنه الروائي بيدرو ليموس (1995)، صاحب رواية «سأسميه حبّاً» (2023) خيط الفكرة ويستطرد: «لا شك في أنّ فكرة مغناطيس الثلّاجة تم تكريسها ضمن القراءات السائدة للروائي، التي لا تخرجه من سياق مصطلح «الواقعية السحرية»، مع غيره من كتّاب أميركا اللّاتينية البارزين». يضيف ليموس: «يجب اليوم قراءة غارسيا ماركيز خارج تلك التسميات والمصطلحات التي لا تعبّر عن تعقيدات نصوصه، بل تحدُّ منها. إنها كليشيهات وتسميات توضع على نصوص ماركيز، ولكنها في حقيقة الحال لا تعطي إلّا فكرة مختزلة عن أدبه، وأدب أميركا اللاتينية ومنطقة بحر الكاريبي. إنها ظلّ يُثقل على القرّاء، وأنا شخصياً لا أريد أن أغطّي نفسي بهذا الظلّ».

غابرييل غارسيا ماركيز في افتتاح مهرجان السينما اللاتينية في هافانا، كوبا، 8 آذار/ مارس 2007 (Getty)

من أميركا الوسطى، تحديداً من الهندوراس، قدّمت الكاتبة والصحافية جينفير آفيلا (1991)، وجهة نظرة مختلفة عن زميليها، فـ«غابو»، بالنسبة إليها، «لا يزال عمله حيّاً ونابضاً، ولا يعود ذلك إلى أن أعماله لا تزال تُنشر بعد موته فحسب، بل لأنها أعمال دائمة، تستمرّ معنا». وهنا تستفيض الصحافية في الحديث عن ماركيز، وتدعم وجهة نظرها بقولها إن «وصول ماركيز إلى القرى النائية في أميركا اللاتينية، وإدراج بعض نصوصه للقراءة الإجبارية في الأنظمة التعليمية دليل على أن أعماله تُناقش بعُمق».

> تحوّل ماركيز إلى مغناطيس تذكاري يُباع في محلّات بيع الهدايا

> لا يُمكن فصل نضاله الاجتماعي والسياسي عن كتاباته الأدبية

الشاعرة الكولومبية، العابرة جنسيّاً، ماي رومير (1990) تستعيد فكرة «الواقعية السحرية» وتُسقطها على واقع التحوّلات «السحرية» الحاصلة في القارّة اللاتينية، سياسياً، واجتماعياً، وثقافياً وجسدياً. هنا تماماً يبرز دور «غابو»، برأيها، حيث «استطاع بواقعية استبصارية سحرية أن يتنبّأ بالتحوّلات التي تُقبل عليها القارّة، وهي تحوّلات لا يُمكن أن نفهم ثقافتنا دونها، وهذا تحديداً ما يجعل عمل غابو ودوره حاضرَين، إذ إنّ جُلّ أفكاره السياسية والاجتماعية والثقافية والجندرية تتبلور في إطار هذه التحوّلات التي تحدث في القارّة، وفي العالَم أيضاً».

في نهاية المناقشة، طلبَت مديرة «المكتبة الوطنية» في كولومبيا، ومُسيّرة النقاش، من كلِّ كاتب اختيار عمل من أعمال ماركيز كي ينصح به القرّاء والكتّاب الشباب. اختار مونيوز رواية «خريف البطريرك» التي تعلّم منها أن «يسخر من السلطة التي يجسّدها البطريرك. هذه السلطة هي اليوم النظام السياسي الحاكم للعالَم. لذلك يجب على الجميع أن يقرأها».

أما ليموس، فقد أوصى بالرواية الأولى للكاتب الكولومبي «عاصفة الأوراق» لأنها «توضّح لنا بذرة ما حدث بعد ذلك». وبدورها أوصت الصحافية الهندوراسية آفيلا بقراءة «مئة عام من العزلة» في لحظات مختلفة من الحياة لأن «كل لحظة ستكتسب فيها الرواية معنى جديداً، وهذا سرّ عبقرية ماركيز». ووقع اختيار الشاعرة ماي روميرو على «لم آتِ لألقي خطاباً» لأنها «تبدو محادثة عفوية بين القارئ والكاتب».

لا يختلف اثنان حول أهمية غابرييل غارسيا ماركيز ومكانته روائياً عالمياً استطاع أن يجعل حياة أميركا اللاتينية قابلة للسرد، والقراءة حول العالم. ربما لهذا تحديداً لا يشعر هؤلاء الكتّاب والروائيون من الجيل الجديد بأي توتر أو صراع عند مواجهة حضور هذا الروائي الراحل، الحاسم والحيوي حتى الآن في المشهد الأدبي المحلي والعالمي.

«نحن لا نعرف وزن الشخص الميت»، بهذه الجملة اختتمت مُسيّرة النقاش، الطاولة المستديرة، في إشارة إلى الجملة التي قالها قبل عشر سنوات، الكاتب المكسيكي خوان فيلورو، في حديث له عن غابو، مؤكّدة أنّ الأموات في بعض الأحيان، تماماً كما هو حال الكاتب الكولومبي، يزنون أكثر من الأحياء، على حدّ تعبير خوان رولفو.

خاتمة لا بدَّ منها

تعود الأُمم الحيّة إلى كتّابها البارزين كي تقرأهم من جديد في ضوء المتغيّرات المحلّية والعالمية التي يشهدها عصرنا. «مهرجان غابو» في دورته الثانية عشرة نموذج للعودة إلى كاتب رحل عن عالمنا في عام 2014، ولكن قراءة كتبه تتجدّد باستمرار في ضوء التحولات التي تحدث في القارة اللّاتينية، وفي العالم.

ثمّة ظاهرة غريبة تحدث في العالم العربي لا ترتبط بطريقة قراءة الكتّاب البارزين الذين رحلوا عن عالمنا العربي فحسب، بل أيضاً بالقراءة السائدة للكتّاب والشعراء والروائيين الذين ما زالوا على قيد الحياة. إنها القراءة الأيديولوجية أو الجاهزة أو المسبقة للمؤلّف أو الكاتب أو الشاعر أو الروائي، بمعزل عن نصه الذي يكتبه. أياً كان هذا النص. هي قراءة تبسيطية، تلفيقية وفي أحسن الأحول توفيقية، تضع للقراءة حدُوداً لا يجوز اختراقها، وتوفّق بينها وبين الفكر الواحد، محاولةً في ذلك مساعدة أنظمة الطغيان والاستبداد، على إخماد شرَر أيّة ثورة تلتهب في عقل القارئ، في جسده، وفي مخيّلته وفكره.

أن تُفرض قراءة واحدة ووحيدة على نصّ يعني، من بين أشياء أُخرى، نهاية العقل والمعرفة والفكر والمخيّلة، ويعني أيضاً غربلة هذا النص في تصوّر أصحاب هذه القراءة، أي تصوّرهم الخاص للواقع وللغة. يبرع في الحياة العربية فنٌّ يكاد أن يكون خبرنا اليومي. إنّه فنُّ الاستحواذ. الاستحواذ على كلّ شيء: السلطة، الثقافة، الدين، اللغة، الكتابة، القراءة، إلخ... وقد برعت المؤسسات السلطوية في العالم العربي في ترسيخ هذا الاستحواذ، بحيث صار المواطن نفسه بارعاً في ممارسة هذا الاستحواذ على كل شيء. والقراءة السائدة اليوم في العالم العربي هي بغالبيتها العظمى قراءة واحدة تستحوذ على النص، وتقيّم كاتبه وفقاً لهذه القراءة، فتخوّنه أو تكرّمه، رافضةً القراءات الأُخرى.

ثلاثة أيام في بوغوتا

«مهرجان غابو» هو تظاهرة أدبية تنظّمها سنوياً مؤسّسة «غابو» في بوغوتا، حيث تجمع في كلّ دورة أكثر من 150 كاتباً وصحافياً وروائياً من أكثر من 25 بلداً من العالم للاحتفاء بقوّة الصحافة والتحقيق والسرد؛ وهو ما تميّز به الروائي الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز. تستمرّ فعاليات المهرجان ثلاثة أيام، وتشمل العديد من الندوات والمحاضرات والمعارض والعروض السينمائية التي تُناقش قضايا الأدب والفنّ والصحافة الراهنة.

هموم شعرية

أمل بقارئ في لحظة ومكان غير متوقّعين

محمد حبيبي

تقف هذه الزاوية مع شاعر عربي في علاقته مع قارئه وخصوصيات صنعته، ولا سيما واقع نشر الشعر العربي المعاصر ومقروئيته

جازان (السعودية)
العربي الجديد

■ ما الهاجس الذي يشغلكَ هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

ملاحم صمود أبناء غزّة الأسطوري، ونجاحهم المتواصل في إفشال كلّ محاولات إجبارهم على النزوح، التي تزداد صلابة كلّما تزايدت مقادير التوحّش والبربريّة والهمجيّة وانتهاك كلّ الأعراف الإنسانيّة والدوليّة التي لم يشهد التاريخ مثيلاً لها من قبل الاحتلال.

■ من هو قارئك؟ وهل تعتبر نفسك شاعراً مقروءاً؟

في الدائرة الضيّقة، أبنائي وأسرتي وأصدقائي. كذلك ثمّة قرّاء محبّون كانوا مجهولين بالنسبة لي لولا تلويحات محبة يبعث بها أحدهم ما بين وقت وآخر، فتعيد بعث الأمل لديّ بوجود قارئ ما دائماً في لحظة ومكان غير متوقّعين!

■ كيف هي علاقتك مع الناشر، هل لديك ناشر وهل هو الناشر الذي تحلم به لشعرك؟

أجمل علاقة لي مع ناشر وظروف النشر التي أحلم بها هي تلك التي حدثت لي مع «دار الجديد» في بيروت قبل رُبع قرن تقريباً! هناك حيث المصداقية والاحترافية منذ استلام المخطوط إلى توزيعه كتاباً في أغلب أرجاء الوطن العربي. بعد ذلك كل شيء مقبول!

■ كيف تنظر إلى النشر في المجلات والجرائد والمواقع؟

حتى وإن بدا للكثير أنّ متابعتها خفتت عن ذي قبل، فمن الضروري تواصل الاهتمام بهذه الأوعية النشرية. مع مرور الوقت، وعلى المدى البعيد، ستتزايد أهمّيتها بصفتها مدوّنات ثقافية تاريخية أرشيفيّة.

■ هل تنشر شعرك على وسائل التواصل الاجتماعي، وكيف ترى تأثير ذلك في كتابتك أو كتابة زملائك ممّن ينشرون شعرهم على وسائل التواصل؟

ما بين حين وآخر. تأثير ذلك منحصر في نوعية النصوص المختارة للنشر في هذه الوسائل وتوقيت النشر، والتفاعل مع الآخرين، ومراعاة أنّ الحساب الشخصي ليس مدوَّنة شعرية خالصة فحسب، فأصدقاؤك في العالم الافتراضي من كلّ الأطياف، ومختلف الاهتمامات. ولكن نحاول!

■ من هو قارئ الشعر العربي اليوم في رأيك؟

لا أدري، قد يقتصر الموضوع للأسف على النُّخب والفئات المهتمّة به دراسةً وكتابةً.

■ هل توافق على أن الشعر المترجم من اللغات الأخرى هو اليوم أكثر مقروئية من الشعر العربي، ولماذا؟

إلى حدّ ما، حينما تتوفّر شروط «ترجمة الشعر» وتميز محتواه الذي لم يكن معيار جودته، وتميّزه معتمداً على مهارات وخصوصيّات لغته الأصلية. أمّا من حيث المقروئية، فربّما يعود ذلك إلى محاولات البحث عن المختلف والمغاير.

> تنوّع الأجيال من أهمّ مزايا الشعر العربي رغم انحسار جماهيريته

■ ما هي مزايا الشعر العربي الأساسية وما هي نقاط ضعفه؟

تنوّع مدارسه وأجياله وصراع القديم - الحديث المستمرّ في كلّ عصوره. ولعل أهم نقاط ضعفه انحسار جماهيريته التي كانت نابعة من أنه كان الفنّ الأول والأوحد تقريباً.

■ شاعر عربي تعتقد أن من المهم استعادته الآن؟

كلُّ الشعراء المغمورين.

■ ما الذي تتمناه للشعر العربي؟

ما أتمنّاه للوطن العربي!

محمد حبيبي

بطاقة

شاعر وكاتب سعودي من مواليد جازان (جنوب غرب السعودية) عام 1968. يعمل أستاذاً للأدب والنقد بـ«جامعة جازان». صدر له في الشّعر: «انكسرتُ وحيداً» (1996)، و«أُطْفِئُ فانوسَ قلبي» (2004)، و«الموجدةُ المكّيّة» (2007)، و«جالساً مع وحدك» (2011). عُرضت له تجارب شعرية مرئية وسائطية رقمية عديدة، منها: «غوايةُ المكان» (2006)، و«حدقةُ تسرد» (2007).

إضاءة

نُخب عربية تبنّت السردية الصهيونية

دفاع «ديمقراطي» عن التطهير العِرقي

ثمّة نُخب عربية لا ترى غضاضة في التعامُل مع الصهيونية، بل إنّ بعضها ما يزال يُدافع عن كيان إمبريالي، بعد أكثر من تسعة أشهر من الإبادة المستمرّة

خالد النجار

من مسيرة تضامنية مع غزّة، طنجة، 7 تمّوز/ يوليو 2024 (Getty)

كنتُ قد كتبتُ قبل عشر سنوات مقالاً بعنوان «صهاينة ولكن تونسيّون»، وهو مقال عن التصهيُن العربي: تونس نموذجاً. ولم أكُن أدري وقتها أنّ تصهيُن بعضِ التونسيّين المُغيَّبي الوعي كان بريئاً براءة طفل يأكل العنبَ. ولم أكُن أدري أيضاً أنّ حجم التصهيُن العربي أكبر بكثير ممّا نعتقد حتى كشف عنه «طوفان الأقصى»، في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2023.

نُشر المقال في حينِه ولكن يبدو أنّ الوعي العربي خاضعٌ للميديا لا للوعي والمعرفة. بدا لي هذا من خلال كثير ممّا يُكتب اليوم حول هذا الكيان الديني الذي له وجه زمني هو الإمبريالية، ومدى تغلغُل سردية هذا الكيان في وعي كثير من النُّخب العربية. فالصهيونية هي إحدى المذاهب الدينية السَّلفية اليهودية الأكثر عُنفاً. وقد سوّت أهدافها وتماهَت مع السياق الزمني الغربي الأميركي على وجه الخصوص. ولأنّ الحركات التقدّمية العربية «لايكية»، وتدور كلّها في فلك الأيديولوجيات الاشتراكية، وتتغذّى من أدبيّاتها فلَم تهتمّ هذه الحركات بالقراءة الدينية لهذا الكيان السرطاني، كما وصّفه عباس محمود العقّاد قبل حوالي سبعين سنة، واعتقدَتْ هذه النُّخب أنّ الآخرين هُم أيضاً غير مهتمّين بالعقيدة بوصفهم فاعلاً أساسيّاً في نظرة إنسان المنطقة للعالَم، كما كتب يوماً لورنس العرب. ولم تقرأ الكيان الصهيوني إلّا بوصفه قاعدة إمبريالية متقدّمة، وهذه نصف الحقيقة.

وسهّلت هذه القراءة انتشار كثير من وجوه التصهيُن لدى كثير من النُّخب السياسية والثقافية العربية. وكانت قمّة الدراما عندما أيّدت بعض الأحزاب الشيوعية العربية قيام الكيان سنة 1948، وتسويتها بين «الكيبوتز» الإسرائيلي و«الكولخوز» و«السوفخوز» السوفييتي، وأنّ «الكيبوتز» خطوة في المنطقة نحو بناء المجتمع الشيوعي. وذهَب السادات إلى اختزال الأمر إلى أنّ ما يفصلُنا عن الصهيونية هو مجرّد حاجز نفسي، بما يعني حاجز وهميّ.

> كذبة الديمقراطية أذاعها الصهاينة عن أنفسهم وسوّقها لهم الغرب

وكان لا بدّ أن تأتي محرقة غزّة، وأن يظهر إيتمار بن غفير وزعيقه الأرعن، وسموتريتش وحقده الأسود، والقتل التلمودي المُرعب ليتكشّف لهُم النصف الآخر للحقيقة، والمتمثّل في الجوهر الديني لهذا الكيان.

هذه القراءة الخاطئة للكيان، وتصنيفه دولة «لايكية» ديمقراطية، وهي كذبة أذاعها الصهاينة عن أنفسهم وانتشرت في الغرب، جعلت كثيراً من النُّخب العربية خاصة في المغرب العربي تلتقي الكيانَ، بل تحجُّ إليه. وثمّة كثير من النُّخب، من تونسيّين وجزائريّين ومغاربة، لا ترى غضاضة في التعامل مع الصهيونية، بل وصل الأمر ببعضهم إلى الدّفاع عن هذا الكيان الاستعماري التطهيري باعتباره «جزيرة ديمقراطية في المنطقة». كما هو شأن الجزائري كمال داود الذي ذهب بعيداً في مهاجمة «حركة حماس»، ونعتها بالإرهاب في مقاله الأسبوعي الذي ينشره في موقع «المنبر اليهودي» (TRIBUNE JUIVE)، وفي «مجلّة لوبوان» الفرنسية، وما يزال يكتب مُديناً «حركة حماس»، بعد أكثر من تسعة أشهر من ممارسة التطهير العِرقي بالتعذيب والقتل التلمودي المُرعِب.

(شاعر ومترجم تونسي مقيم في أمستردام)

فعاليات

عند السادسة من مساء الأحد المُقبل، يُنظَّم في مبنى «قنصلية» وسط القاهرة، الصالون الثقافي السادس لمشروع **روايات مصرية للجيب** التابع لـ«المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر»، لمناقشة الأعمال الفائزة بجوائز المشروع، ويُشارك فيه الكتّاب: **محمد عصمت** (الصورة) و**ميسرة الدنداروي** و**نهى داود** و**مصطفى منير**.

ابتداءً من بعد غدٍ الجمعة، وحتى التاسع والعشرين من أيلول/ سبتمبر المقبل، يستضيف «البيت العربي» في مقرّه بمدريد معرض **وجوه وآثار من الأردن** للفنانين الأردنيين المقيمين في إسبانيا: **غسان سيلا** و**أنيس المعاني**. يقدّم المعرض في قسمه الأول صوراً تعبّر عن الإرث الثقافي والأثري المتنوّع للأردن، أما قسمه الثاني فيقترح منحوتات تستكشف تطوّر الأشكال الطبيعة للبلاد.

حتى العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر المُقبل، يستمرّ في «معهد العالم العربي» بباريس معرض **بغداد: إعادة اكتشاف مدينة السلام**. يُسلّط المعرض الضوء على فترة مثيرة من تاريخ بغداد، ولا سيّما في العصر العباسي، ويُعيد تركيب المدينة عبر الواقع الافتراضي، إضافة إلى عرض بعض القطع الأثرية لتلك الفترة.

عند الخامسة من مساء الحادي والثلاثين من تموز/ يوليو الجاري، يُفتتح في «غاليري أجيال» ببيروت معرض **نسيج الماء** للتشكيلية اللبنانية **ريم الجندي** (1956). تُقدّم الفنّانة في لوحاتها مشاهد عن رحلة العبور من العالم المعروف إلى آخر مختلف، عبر نسيج من الألوان يحضر فيها الأزرق وتدرّجاته بقوّة.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

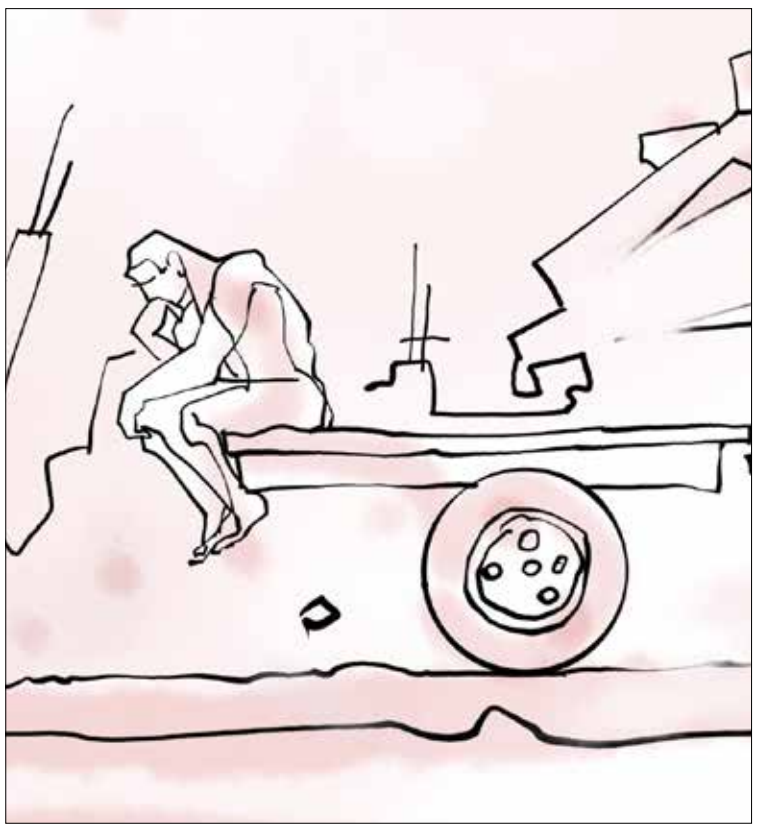

رسم للفنان عماد حجاج

رائحة الدم تخرج من تحت ركام البيوت المدمرة، التي ما زال ساكنوها الشهداء تحت الأنقاض

ريما محمود كاتبة

الرجوع إلى حضن الأم

بعد تجربة نزوح دامت لسبعة أشهر عشتها بين خيم النازحين واللاجئين في رفح، ومن بيت لبيت ومن بيت لخيمة، هي التجربة الأسوأ في حياتي من التشرد والقهر والمعاناة، وستبقى خالدة في الذاكرة إلى الأبد، قررتُ العودة الى بيتي بعدما أعلن جيش الاحتلال الانسحاب من مدينة خانيونس، شعرتُ وقت الإعلان بفرحة ناقصة وخوف شديد من الرجوع إلى بيتي خشية أن يكون مقصوفاً، وبالتالي قد تهدّم وأن أصبح بلا مأوى. كان هذا الخوف يراودني منذ عدوان 2014 بعد قصف بيتي، واستشهاد والديّ العزيزين رحمهما الله، ولم يفارقني في كل يوم من أيام هذه الحرب الدائرة، لا سيما أن خانيونس مثل الكثير من المناطق تعرّضت طوال الحرب لقصف عشوائي. وخلال نزوحي إلى غرب شمال مدينة رفح، كنت أشاهد أعمدة الدخان تتصاعد من جهة خانيونس، وأسمع أصوات الانفجار تهز المدينة. يقع بيتنا في قرية عبسان الكبيرة بجوار خانيونس.

في منتصف إبريل/ نيسان، لملمتُ أمتعتي وكراكيبي وحصتي من الكابونات والمعلبات وما تسوقته من سوق رفح من مواد تموينية بالإضافة لمواد تنظيف تمهيداً للرجوع.

وصلنا إلى البيت، أنا وعائلتي، الساعة العاشرة صباحاً سعداء، فالبيت قد تعرض لأضرار جزئية فقط، بمعنى أنه بقي قائماً لم يهدم. سجدت لله الذي حمى البيت وشكرته على هذه الأضرار الطفيفة وأنه صالح للسكن.

قمنا بتنظيف البيت على مدار ثلاثة أيام من الزجاج والركام والغبار بالقليل من المياه المخزّنة منذ شهر أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، وبدأت معاناتي بسبب عدم توافر المياه الصالحة للشرب ومياه الاستخدام المنزلي، تتفاقم يوماً بعد آخر. وبدأتُ أنا وأختي بالبحث داخل قرية عبسان الكبيرة حيث منزلنا، والمشي لمسافات طويلة للحصول عليها لقضاء حاجتنا منها بعد تدمير الاحتلال القرية والبنية التحتية لها. ويمكن للمرء أن يتخيل انتظارنا يومياً لساعتين وثلاث ساعات في طابور طويل لتعبئة المياه. لا يختلف الأمر كثيراً هنا في تعبئة المياه عما كان عليه الوضع في مخيمات النزوح في رفح. وهكذا مضى أسبوعي الأول بين تعبئة المياه الصالحة وغير الصالحة والمشي بين الركام والبيوت المدمرة، حيث كان الناس ينصبون الخيام فوق ركام بيوتهم التي هدمها الجيش.

أما عن المساء فهناك قصة أخرى. في بداية الليل عند اقتراب الساعة السابعة، أشغّل الراديو لمتابعة الأخبار والتحليل السياسي والعسكري للحرب على غزة لأكثر من ساعتين، وعند الساعة العاشرة مساء يبدأ النُعاس يتسرَّب إلى عيوني.

هناك سكون لم نعتد عليه خلال الأشهر السبعة السابقة ممزوج بالخوف لعدم توافر الكهرباء والعتمة التي تسود القرية يخترقه صوت الكلاب التي تخرج للنباح كل منتصف ليل، وكأنها تريد إيصال رسالة لنا بوجود خوف خارج حدود المنزل فلا نغادره.

كنتُ أنتظر الصباح لأشعر بالأمان، ولكن ما أن يبدأ النهار حتى نسمع صوت القصف المدفعي وصوت الرصاص على حدود القرية. في أحد الأيام، كان هناك قصف شديد للقرية ووصل القصف لبيت بجوارنا على مسافة خمسين متراً، إذ أصابته قذيفة مدفعية «قذيفة عمياء»، وقتها طلبت مني أمي أن ننزح مرة أخرى ونسير باتجاه مواصي، قرب مدينة خانيونس، على اعتبار أنها منطقة آمنة، خوفاً علينا. في الحقيقة، لا توجد مناطق آمنة في كلّ قطاع غزّة. رفضتُ وبشدة الخروج والنزوح من بيتي مرة أخرى، واعتبرتُ أن الموت أينما ذهبت موجود، وكل غزّة غير آمنة، وطلبت منها هي أن تذهب عند أختي المتزوجة في المدينة، في الغرفة الوحيدة التي نجت من البيت، وصارت هي كل البيت، حيث تعيش فيها أختي وعائلتها المكونة من سبعة أفراد. الناس تصلح ما يمكن أن يكون ملائماً من البيت المهدوم وتعيش فيه، لأنها تريد أن تكون قرب بيوتها. في المدينة، معظم البيوت تضرّرت بشكل كامل وأصبحت غير صالحة للسكن.

هنا مدينة خانيونس المدمرة، التي كانت قبل السابع من أكتوبر/ تشرين الأول تعجّ بالحياة والناس، وحتى مع بداية الحرب كانت ملجأ للنازحين من قطاع غزة واعتبرت منطقة آمنة، ولكن للأسف لم يعد هناك مدينة، بل أصبحت كمدينة أشباح. الدمار والخراب في كل مكان، ورائحة الدم تخرج من تحت ركام البيوت المدمرة، التي ما زال ساكنوها الشهداء تحت الأنقاض حتى الآن.

أسأل نفسي دائماً، ماذا كان يفعل هؤلاء الناس في ساعاتهم الأخيرة. هل كانوا يتناولون الطعام سوية؟ أم كانوا مجتمعين يؤنسون بعضهم بعضاً من الخوف؟ أم كانوا نائمين ينتظرون أجلهم تحت القصف المستمر؟ ما ذنبهم؟ وماذا لو كنتُ أنا مكان هؤلاء الناس، هل سيقصف بيتي مرة أخرى، ولا يستطيع أحد انتشالي من تحت الأنقاض، وستفوح رائحتي وتزكم أنوف المارين من جانب ركام البيت؟ وهل سيكتبون على بقايا البيت: «هنا ما زال يرقد جسد ريما؟». أفكار سوادوية تهيمن على عقلي وفكري، ولكني أيضاً أعلم أن الخروج من المنزل قسرياً أشبه بالخروج من حضن الأم رغماً عنها.

لا أنكر أنني عندما رجعتُ للمنزل شعرت بأنه غريب عني، وأن شيئاً ما يدعوني للخروج منه. هذا الشعور لم أجعله يلازمني، فبدأت بالبحث عن ذكرياتي وأشيائي الخاصة جداً، التي تحمل إشارات جميلة لحياتي، مثل كرة الثلج التي كلما شعرت بالضيق أذهب إليها وأستمع لموسيقاها الخاصة التي تأخذني لعالم بعيد عن هذا العالم البشع، أحاول التأقلم مع هذه الحياة التي لا تشبهني من فتاة تحبُ نفسها وتحب الحياة لفتاة تنتظر الموت أو انتهاء الحرب.

في الحرب، فقدتُ أشخاصاً أعزاء على قلبي، تربطني بهم حياة أسرية، حتى أنني فقدت الحب في هذه الحرب، وأصبحت غريبة الأطوار والمشاعر. حاولتُ كثيراً أن أتخلص من هذه المشاعر السوداوية التي خلّفتها الحرب ولم أفلح. السؤال الذي يظل يراودني: هل سننجو؟ وهل سأتمكن من نسيان ما شعرت به طوال فترة الحرب؟ وهل ستكون صديقاتي وأصدقائي بخير؟ أم أننا سنموت في حضرة حب المدينة والبلد؟!

ومع ذلك، فإن غزة التي أحبها هي تلك العروس التي اغتُصِبَت في ليلة فرحها أمام مرأى العالم، ولم يحرك أحد ساكناً. ستُشفَى وتقاوم وتطالب بحقها، وستبقى مرفوعة الرأس لأننا اعتدنا عليها كذلك.

نهيل مهنا كاتبة

أنت المنسيّ... أنت الغارق بهمّك وحدك

في ليلة التاسع والعشرين من يناير، استيقظنا في منتصف الليل، تحديداً الساعة الثانية عشرة، على صوت رصاص وقذائف وقنابل كزخّ المطر يقترب. في بداية الأمر، ظننا أنها اشتباكات بعيدة، فالجميع يعلم أن الدبابات انسحبت منذ شهر وزال الخطر نوعاً ما، لكننا كنا مخطئين، اقترب الصوت كثيراً، انتقلتُ من مكاني، وهو المكان الأقرب للشارع، باتجاه عائلتي التي لا تفصلني عنها سوى ستارة، ابتعدتُ عن النوافذ وتسللتُ مسافة أمتار فقط، وكانت هذه اللحظات الثلاث هي التي أنقذت حياتي، بدأت القذائف ورصاص المدفعيات تدخل من النافذة تباعاً وتخترق الألمنيوم والجدران، تطايرت الشظايا حولنا وسقط منها على الوسائد والكنب ونحن تحت تأثير الصدمة ولا ندري ماذا يحدث من حولنا، هل هي اشتباكات؟ أم توغّل؟ أم أن الدبابات تمهد الطريق لكي تتمركز؟ أم أن الجنود يركضون في الشارع وفي أيديهم رشاشات؟

لم أشعر في حياتي كلّها بطعم الخوف الحقيقي مثل هذه المرّة، لم أشعر باقتراب الموت سوى هذه الليلة، كنا منبطحين على الأرض لا نستطيع رفع رؤوسنا أو التلفظ بكلمة واحدة، اشتدّت الطلقات، صوت الانفجارات وقنابل الصوت كأنها داخل البيت، الكواد كابتر (طائرة موجهة للقتل) تهبط تدريجياً وتصوّر داخل البيوت، في هذه اللحظة شعرنا جميعاً أننا ميتون لا محالة، كلّ شيء انتهى.

ما الشيء الذي فعلته في حياتك لتستحق هذا التكفير؟ يا عالم. أنا مواطنة فلسطينية أو لاجئة، كما تشاؤون لا يهمّ، لكنني لم أقتل أحداً ولم أظلم أحداً، أنا لا أذكر حتى أنني كذبتُ يوماً أو سرقت، لماذا كلّ هذا الخوف، وكلّ هذا الرعب، وكلّ هذا الظلم، وكلّ هذا الرصاص؟

لم أستطع الاحتمال، انفجرتُ بالبكاء تماماً كما انفجرت شظايا النوافذ والجدران وأصيص الزرع الضخم والجرات الفخارية الملونة، التي كانت تزيّن المطبخ من كثافة الرصاص، شعرتُ أن رأسي ينفجر وأعصابي تشتعل، تمنيتُ لو أغمي عليّ من الخوف أو أذهب في غيبوبة ولو للحظات لكي أرتاح من هذه الجهنم المحيطة بنا، قرأتُ الشهادتين وأغمضت عينيّ ووضعت رأسي على الوسادة واستعددت للموت.

وجدتُ نفسي بين ذراعي ابنتي وهي تهمس بأذني ألا أخاف، وطلبت مني تكثيف الدعاء، صمتُ قليلاً.. بدأتُ أتنفس، عدلت جلستي، بدأت ضربات القلب تنتظم، وبدأت الأصوات تبتعد، خمسة أزواج من العيون تحدّق في بعضها، وتسأل نفسها السؤال نفسه: هل ابتعدوا؟ هل هذا حلم؟ بل كابوس؟ ما الذي يحدث في الخارج؟ نظرتُ إلى ساعتي، وجدتها الثالثة فجراً، في البداية لم أصدق أننا صمدنا وسط هذه الجهنم ثلاث ساعات كاملة، إذا ما عشناه لم تكن جهنم فما هي جهنم إذاً؟!

فتح أخي الساكن قبالنا الباب، وهو يبحث عنا في الزوايا محدقاً في الظلام خشية أن نكون كلنا أو بعضنا في عداد الموتى، كان يبحث عن اللون الأحمر، لقد توقع أن يدخل ويجده في كلّ مكان، ولكن بعد بحلقته وذهوله بثانيتين، قلنا له بصوت واحد: «تقلقش إحنا عايشين». تنفّس أخي أخيراً، فهو طبيب وتقع على عاتقه سلامتنا منذ بداية الحرب، أخبرنا أنّ أسطولاً يتكون من ثلاثين دبابة مرّوا عبر شارعنا تحت تغطية جوية وبرية كاملة.

علمنا بعد خمس ساعات، وقبل أن ننام كالجثث من شدّة التعب والسهر والإرهاق والرعب أن هذا الأسطول اتجه ناحية مقرّ شركة الاتصالات الفلسطينية، وتمركز هناك استعداداً لبدء عملية عسكرية مكثفة.

ألقت طائرات الجيش الإسرائيلي على أثر هذا التصعيد المباغت مناشير، تطلب ممن بقي في منطقة (حيّ) النصر، ومن مناطق أخرى ضرورة الإخلاء والتوجه إلى مخيم دير البلح، استعداداً لحملة اعتقالات واسعة.

بدأت أسرّ بأكملها تنزح، وهي تحمل ما تستطيع حمله من مؤن وأغطية وملابس، حاولنا النزوح إلى بيت أقارب لنا ليس ببعيد حتى نتجنّب ويلات الشارع الرئيسي، ولكن صعوبة نقل الموارد الأساسية كالماء والغذاء والفرشات حالت دون تنفيذ هذا القرار.

توغلت الدبابات في تل الهوا ومعسكر الشاطئ ومنطقة أنصار والشيخ رضوان بعد انتهاء المهلة التي خصصت للنزوح، وظلّت الدبابات التي تمركزت في مفترق الاتصالات تطلق النار باتجاه المارين منعاً للحركة، كنا نسهر كلّ ليلة حتى ساعات الفجر خوفاً من المداهمة واعتقال الرجال كما رأينا في نشرات الأخبار، كل ليلة نتحسّس أغراضنا ونحصي حقائبنا ونثقل ملابسنا استعداداً لهذه اللحظة.

بعد عشرة أيام بلياليها الطويلة استمرّ خلالها إطلاق رصاص المدفعيات والقصف الجوي دون توقف، استيقظنا على صوت الناس في الشارع يقولون إن الدبابات انسحبت، وإن المكان الآن أصبح آمناً.

اعترفت لي ابنتي في تلك الليلة الموحشة، التي كنا فيها تحت القصف ورصاص المدفعيات، أنها لم تكن تدرس عندما كنت أتركها في البيت، وأذهب لقضاء بعض المشاوير الضرورية، بل كانت تقضي جلّ الوقت على هاتفها النقال تتصفح التيك توك، وتستمع إلى الموسيقى، وطلبت مني أن أسامحها، واعترفت لي أيضاً بأنها كانت تتقاعس في صلاتها، وأنها أفطرت يومين في آخر رمضان دون أن تخبرني، وعندما سألتها عن سبب اعترافها لي في هذا الوقت الصعب، أخبرتني أنها تريد أن تموت وهي شجاعة دون أن تكون قد أخفت عني شيئاً، تسلّحت بالشجاعة وأخبرتها أنني مدينة لها أنا أيضاً باعتراف، وهو أنني كنت أذهبُ إلى الجيم لألتقي الصديقات وأتناول معهم الوجبات، وندخن النرجيلة في استراحة الجيم، ولم أكن أمارس الرياضة كما كنت أخبرها، ولهذا السبب لم أتمكن يوماً من خسارة الوزن والحصول على الوزن المثالي كما كانت تنصحني، ولكن اليوم وبعد مرور ستة أشهر على الحرب، استخدمتُ ميزاناً وجدناه بالصدفة في بيت عمي الذي نزح أخيراً عند ابنه، واكتشفت أنني خسرت اثني عشر كيلوغراماً، ووصلت إلى الوزن المثالي، ولكن ليس بسبب الجيم الذي لم أكن أطيقه، بل بسبب الحصار وانعدام وصول المواد الغذائية وشحّ الحلويات، فما نأكله منذ بداية الحرب من بقوليات لا يغني ولا يسمن من جوع، بالإضافة إلى قيامي بجميع المهام المنزلية، مضافاً إليها العجن والخَبز والغسل اليدوي والتحطيب، إلى جانب المشي عدّة كيلومترات لجلب الأشياء الضرورية من السوق أو الصيدلية.

في التاسع عشر من فبراير/ شباط علمت باستشهاد زميلة لنا بعد تهجيرها إلى أهلها في خانيونس لتبتعد عن الخطر، لكن الموت هو الذي اقترب واختارهم جميعاً. لم أستوعب الأمر في البداية، فالعقل البشري بطبيعته لا يستطيع استيعاب الصدمات دفعة واحدة، فهو يحاول تجزئتها أو تضليلها، مصدراً ردود أفعال كالومضات بين الحين والآخر، ولكن عندما أصبحت زميلتي تزورني في أحلامي كلّ ليلة، أدركت وقتها أنني لن أراها بعد الآن.

وقعتُ فريسة لاكتئاب حادّ وكوابيس متكرّرة لمدة أيام، كنتُ حبيسة غرفتي أتصفح الصور والذكريات بالساعات، وأتساءل: مَن يا ترى عليه الدور؟ هذه الحرب اللعينة تحصد كلّ يوم زميلاً أو صديقاً أو بيتاً أو مؤسسة أو شارعاً أو مقهى من رصيدك وتقتلع بأنيابها الحادة ذكرياتك معهم من دون أن تنظر إلى الوراء أو يغمض لها جفن. قاطعتُ الإنترنت، ذلك المهرّج الخبيث الذي ينقل لنا أخبار استشهاد أحبابنا لتقع على رؤوسنا كالصاروخ، بينما ينقل لغيرنا أخبار الفنانين وتوقعات الأبراج وإعلانات مسلسلات رمضان، يا إلهي كيف يتسع هذا العالم لكل هذه التناقضات؟ فهل حقاً نحن أبناء كوكب واحد؟

في الثامن والعشرين من فبراير، كان يوم عيد في غزة، لقد دخل الطحين أخيراً، استيقظنا في الفجر على صوت الناس تنادي للتوجه إلى دوار النابلسي في شارع الرشيد للحصول على طحين مما تلقيه الشاحنات هناك، وذلك بعد أن كللت هذه المهمة بالفشل خمس مرات متتالية، حصل كل بيت على كيسي طحين أبيض كالقمر، سارعنا بتحضير عدة العجن، لم تسعنا الفرحة ونحن نعجن بالطحين الأبيض الناصع من دون خلطه بطحين الذرة أو الشعير الذي تآكلت معدتنا من هضمه ورداءة مذاقه على مدى شهرين.

جهزنا المناقيش وأعددنا الشاي وأكلنا من الخبز الجديد، وكأننا لم نأكل خبزاً من قبل، بدأت تهلّ الأخبار بأن المخابز ستفتح أبوابها بعد دخول الطحين، وهذا معناه أننا يجب أن نودع الحطب والنار والطابور، يااااه هل نفرح أم ننتظر قليلاً تأكيد الخبر خوفاً من أن نفجع ثانية.

في الأول من مارس/ آذار، بدأت الطائرات بإنزال معونات غذائية على مناطق متفرقة في غزة، وذلك بسبب منع دخول شاحنات المساعدة إلى مناطق الشمال، أول مرة شاهدنا الطائرة وهي تسقط البراشوتات اتسعت عيوننا وتصلبت رقابنا ونحن نراقب المنظر، عندما أُذيع في الأخبار أن هناك بضاعة ستصل إلى مدينة غزة عبر الطائرات، لم يصدق أحد الخبر واعتقدنا أنها خزعبلات حروب وهذيان حكام، ولكن عندما حدث بالفعل شعرنا أننا داخل فيلم سينمائي، لكن أحياناً تكون الحقيقة أغرب من الخيال، والواقع أكثر عبثاً من الأفلام.

صنعنا فرن طينة استقبالاً لشهر رمضان الذي سيهلّ بعد أسبوع، فالطهي على الغاز هنا في غزة ضرب من الجنون، والحصول على جرة غاز ضرب من الخيال، جمعنا الحصى والرمل الناعم لنصنع قوالب الأسمنت، واستعنّا بجارنا الخباز لإتمام المهمة، بحثنا عن منطقة بعيدة عن الهواء والشمس، وبنينا الفرن فوقها، بعد يومين قصصنا شريط الافتتاح بعد أن جفّ الأسمنت وأصبح الفرن جاهزاً للاستعمال.

اليوم هو الحادي عشر من مارس، أي الأول من رمضان، هاتفتني أختي من الخارج وأخبرتني أن الحرب ستنتهي بعد شهرين، وسألتني كيف ندبر أمورنا وكيف نجلب المونة لرمضان، فقلت لها: خليها على الله.

في المساء، وبعد أن تناولنا الإفطار جميعاً، وهو طقس عائلي لا يتغير على مرّ السنين حتى بوجود حرب، شاهدنا إعلانات رمضان عبر التلفاز وبكينا كثيراً على حالنا، والعالم العربي يدير لنا ظهره بهذه السرعة، ويتفرغ للرقص والغناء والاحتفال والتهليل، فأنت منذ الآن ليس أنت، أنت الضحية أنت المنسيّ أنت الغارق بهمّك وحدك، وما من منج لك سوى نفسك.

15 مارس/ آذار 2024.

يا عالم. أنا مواطنة فلسطينية أو لاجئة، كما تشاؤون لا يهمّ ولكنّني لم أقتل أحداً ولم أظلم أحداً